الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الأستاذ سلامة موسى يتجنى على الأدب العربي — من واجب كل مصري أن يعطف على العروبة والاسلام لأنهما سناد مصر في الشرق — أدوات مدرسية — السوريون في مكاره الاغتراب — الخوف أنفع من الأمان

درس ينفع

يظهر أن فصل الصيف تعوّد الجدل والعناد ؛ ففي الصيف الماضي كانت جناية الأستاذ أحمد أمين على الأدب العربي ، وقد رأينا تلك الجناية وهي في المهد . وفي هذا الصيف يتجنى الأستاذ سلامة موسى على الأدب العربي ، فهل يكون من الواجب أن نوجه إليه التفاتة ترده إلى الصواب ؟

ونذكر أولاً أن الأستاذ سلامة موسى صديق عزيز ، وأنا لا أتخلى عن أصدقائي ، ولا أذكرهم بغير الجميل

ونذكر ثانياً أن هذه شنشنة نعرفها من أخزم ، فقد وقعت بيني وبين الأستاذ سلامة موسى مناوشات كثيرة على صفحات البلاغ يوم كنا زميلين نتحارب بالأقلام ونتصافح بالقلوب

والحق أن الأستاذ سلامة موسى له على أهل الأدب حقوق ، فهو رجلٌ بنّاء ، وإن غلبت عليه الشهرة بحب الهدم ، وقد يكون أقدر أدباء اليوم على مسايرة ما يجدّ من التطورات في الأدب الحديث ، فهو لذلك صديقٌ روحيٌّ لأكثر أدباء هذا الجيل

ثم أدخل في صميم الموضوع فأقول :

تحدث الأستاذ سلامة موسى في مقال نشره بمجلة اللطائف عن الجهود الأدبية لجماعة من أدباء مصر هم : طه حسين والعقاد والزيات وزكي مبارك

وهو يرى أن هؤلاء الأدباء « لهم هموم ثقافية لا يمكن أن تحرك قراءنا وتحيلهم إلى مكافحين يجاهدون أو يجتهدون لخدمة الأمة، لأنهم في حقيقتهم وشعورهم متفرجون مستمتعون لأنهم يعالجون المادّيات العربيـة التي تدرس للذة والاستمتاع وليس للمغزى والكفاح »

ذلك كلام الأستاذ سلامة موسى ، وهو كلامٌ برّاق يُزيغ بصائر القارئين ، فمن الواجب أن ننقضه من الأساس قبل أن يفعل فعله في القلوب والعقول

وماذا يريد هذا الصديق أن يقول ؟ إن كان يريد القول بأننا لم نلتفت إلى ما في عصرنا من ثقافات ومعارف وفنون فقد أخطأ كل الخطأ ، وانحرف عن الصواب أشد الانحراف

فالدكتور طه حسين الذي شغل نفسه بدرس عصر النبوة والعصر الأموي والعصر العباسي وتحدث عن المعري والمتنبي هو ذاته طه حسين الذي شغل نفسه بدرس طوائف من الآثار الجميلة للأدب الفرنسي الحديث ، وهو ذاته طه حسين الذي التفت إلى مستقبل الثقافة في مصر فنشر عنها كتاباً في جزأين ، فمن التجني أن يقال إن مثل هذا الرجل لا يعرف غير الهيام بأودية العصور الخوالي

والأستاذ عباس محمود العقاد الذي شغل نفسه بدرس أشعار ابن الرومي ، ومن إليه من أعيان الشعراء القدماء هو ذاته عباس العقاد الذي شغل نفسه بدرس جماعات من المفكرين الذين سيطروا على العقل الأوربي الحديث ؛ وهو نفسه عباس العقاد الذي سايَر التطورات السياسية في مصر بذهن ثاقب وقلم وثّاب؛ وهو عينه عباس العقاد الذي ترجم لشعراء مصر في الجيل الجديد ، فمن التعسف أن يقال إن مثل هذا الباحث لا يعرف غير الاشتغال بالماديّات الأدبية

والأستاذ أحمد حسن الزيات الذي اهتم بتأريخ الأدب العربي ، والذي عنّى نفسه بنقد كتاب ألف ليلة وليلة ، والذي يحرص أشد الحرص على إحياء ما اندثر من آثار القدماء ، هو نفسه أحمد حسن الزيات الذي جاهد أصدق الجهاد في نقل الدُّرر من آيات الأدب الفرنسي الحديث ، وهو عينه أحمد حسن الزيات الذي عالج المشكلات الاجتماعية بأسلوب يشهد بأنه مجروح القلب من أزمات هـذا الجيل . فكيف يقال إن مثل هذا الكاتب لا يعرف غير الطواف برسوم العهود السوالف ؟

بقي الكلام عن الدكتور زكي مبارك وهو رجلٌ أدرك أسرار أدبه بعض الإدراك لأن اسمه يشابه اسمي

وأعترف بأني أوغلت في دراسة الأدب القديم كل الإيغال ،

ولكن عذرى فى ذلك مقبول ، فقد أفهمنى جماعة منهم الأستاذ سلامة أنى قضيت عشرين سنة فى الحياة الجامعية ، وأن من الواجب أن أقيم الدليل على أنى أصلح لأستاذية الأدب العربى والفلسفة الإسلامية ، وكذلك خصصت الأدب والفلسفة بجهود لا ينكر قيمتها أحدٌ من المنصفين . . . وهل فسد الزمان حتى أحتاج إلى الاعتذار عن الأعوام الطوال التى قضيتها فى تأليف «الأخلاق عند الغزالى» و «النثر الفنى» و «التصوف الإسلامى» و «الموازنة بين الشعراء» و «عبقرية الشريف الرضى» ؟

وإلى من أعتذر ؟ إلى الأستاذ سلامة موسى الذى أعجب بهذه المؤلفات كل الإعجاب ! !

وأنا مع ذلك لم أنس نصيبى من معالجة معضلات العصر الحديث ، وقد سجّل الأستاذ سلامة موسى فى «المجلة الجديدة» أنه كان يجدُر بالدكتور زكى مبارك أن يجمع مقالاته التعليمية فى كتاب خاصّ لتكون نبراساً يهتدى به المعلمون

وقد زكّيت عن الأعوام التى قضيتها فى فرنسا بكتاب «ذكريات باريس» وهو كتابٌ يشهد بأنى عشت فى فرنسا وأنا حادّ البصر ، وافر الذكاء ، وهو كتاب يصوّر كثيراً من أزمات فرنسا فى هذا الجيل

والعام الذى قضيته فى بغداد صورتُ به فى كتاب «ليلى المريضة فى العراق» أعظم المعضلات التى تعانيها فلسطين وسورية ولبنان ومصر والعراق ؛ ولو أن الأستاذ سلامة موسى قرأ كتاب ليلى لعجب من أن يستطيع الرجل فى عام واحد أن يدرك سرائر هذه البلاد ، مع أنه كان موظفاً مسئولاً يحضر فى كل أسبوع نحو اثنى عشر درساً لفتيان ناضجين هم طلبة دار المعلمين العالية فى بغداد

* * *

لا يهمنى أن أدفع الاتهام الموجّه إلىّ وإلى العقاد والزيات وطه حسين ، فلى ولهم أقلام تدفع ما يوجّه إلينا من العدوان بأيسر مجهود حين يشتجر القتال

وإنما يهمنى أن أدفع الشر عن الأدب العربى ، فهو ليس أدباً ميتاً ، كما يتوهم بعض الناس ، وإنما هو أدب يتوثب من فيض القوة والحيوية ، وبفضل الأدب العربى بقيت الذاتية الشرقية إلى اليوم ، ولولا الأدب العربى لكان الأستاذ سلامة موسى فى أيامه هذه كاتباً يرطن فى لغة الأرمن أو لغة اليونان !

ومن محاسن الأستاذ سلامة موسى أنه وطنىٌّ صادق الوطنية ، ومن هذه الناحية أغزوه بلا رفق

فمصر التى يحبها أصدق الحب لم تَسُد فى الشرق إلا بقوتين عظيمتين : هما اللغة العربية والشريعة الإسلامية

وهل من القليل أن تأخذ بلاد العرب ثقافتها العربية عن مصر؟ هل من القليل أن يأخذ وطن الرسول معارفه الدينية عن مصر ؟ هل من القليل أن تكون مصر هى البلد الذى صارت العربية لغته القومية الوحيدة وصار الإسلام هو دين الأكثرية الساحقة من أبنائه الأوفياء ؟

قد يكون سلامة موسى فى دينه أصدق منى فى دينى ـ والله أعلم بالسرائر ـ ولكن من المؤكد أنى أصدق منه فى الوطنية ، فأنا أحرص على اللغة العربية والإسلام خدمةً لوطنى ، وأنا أغض النظر عن هفوات كثيرة لرجال الدين ، لأنهم على أى حال من الشواهد على أن وطنى له سلطة روحية . وقد تطوع المسلمون فى مصر لمعاونة الأحباش أيام محنتهم بعدوان الطليان لغرض وطنى هو الشعور بأن الكنيسة القبطية لها سلطانٌ روحىٌّ على عقائد الأحباش

فهل يغار الأستاذ «سلامة موسى» على الأزهر الشريف كما أغار على الكنيسة القبطية ؟ وهل يحب المسلمين كما أحب الأقباط؟

أستغفر الله وأستغفر الوطن ، فالأستاذ سلامة موسى بحق وصدق من أكرم أصدقاء العروبة والإسلام ، لأنه بالفعل من مشاهير الكتاب فى اللغة العربية

وإنما أعيب على سلامة موسى أن يكون أقل وطنية من مكرم عبيد الذى يحفظ القرآن عن ظهر قلب ليكون من أفصح الخطباء باللغة العربية

وإنما أعيب عليه هذا لأنى أكره أن يكون السياسى أصدق وطنية من الأديب

ولنفرض جدلاً أن طه حسين والعقاد والزيات وزكى مبارك لا يشتغلون بغير دراسة الأدب العربى القديم ، فما العيب فى ذلك ؟

وهل من الكثير أن يكون منا عشرة أو عشرون

أو ثلاثون يقضون أعمارهم فى دراسة ماضى اللغة العربية ، وهى اللغة القومية فى مصر منذ ثلاثة عشر قرناً ؟ وهل تعاب فرنسا وانجلترا وإيطاليا بأن فيها مئات من الباحثين لا يهتمون بغير درس الذخائر من الأدب القديم عند اليونان والرومان ؟

وما رأى الأستاذ سلامة موسى فى التوراة والإنجيل وهما من النصوص العتيقة بلا جدال ؟

هل يرى أن الاهتمام بدرس التوراة والإنجيل من العبث السخيف بحجة أنهما لا يمثلان معضلات العصر الحديث ؟

وهل يرى أن نحرق جميع ما حفظ الزمن الشحيح من تراث العربيين القدماء ؟

الأستاذ سلامة موسى رجل مثقف ، فهو يدرك أن العقل الإنسانى يتطلع إلى فهم جميع الآثار الإنسانية ، وإن قَدُم عهدها فى التاريخ . فهل يوجّه ثورته إلى العرب لأنهم عرب ؟

إن كان ذلك فلينتظر ، فقد أرجع إليه بعد أيام ومعى وثيقة تشهد بأنه عربىّ الأصل ، وفى العرب نصارى ويهود ومسلمون لأن العروبة هى مصدر هذه الديانات الثلاث

الدنيا كلها تجتمع ، ونحن نفترق ، مع أننا أحوج من سائر العالمين إلى الائتلاف ، والعرب والمسلمون فى جميع بقاع الأرض يرون مصر مشرق الأنوار العربية والإسلامية ، وأخونا سلامة موسى يريد أن ينزع عن رأس مصر هذا التاج المرموق

ولو كان سلامة موسى من أرباب المآرب المادية لعذرناه ، وقلنا إنه رجل ينتفع من مؤازرة خصوم العروبة والإسلام ، ولكن سلامة موسى رجلٌ عفيف القلب والجيب ، ولن يترك لأطفاله غير ما ورث عن أبويه الكريمين ، فكيف يستبيح أن يسيء إلى سمعة مصر العربية والإسلامية بلا جزاء ؟

سلامة موسى من أعز أصدقائى

فهل أرجو أن يراعى خاطر صديقه الأمين حين يتحدث عن صلة مصر بالشؤون العربية والإسلامية ؟

إلى صديقى سلامة أوجّه هذا الرجاء ، ففى الدنيا مكاره تشغلنى وتشغله عن مكايدة الصديق للصديق

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، فإنى أو إياه لعلى هدًى أو فى ضلال مبين

أدوات مدرسية !

كان المألوف فى مثل هذه الأيام أن ينص أصحاب المدارس فيما ينشرون من إعلانات على ما تمتاز به مدارسهم من جمال الموقع ، وكثرة المختبرات ، وأهلية المدرسين ، وحسن النتائج

ولكن الزمان يأتى بالأعاجيب ، فلأول مرة فى تاريخ مصر تقول إحدى المدارس فى إعلاناتها إنها مزوّدة بمخبأ طويل عريض يؤوى مئات التلاميذ !

هى محنة جديدة لم تخلُ أخبارها من جديد ، والله الحفيظ

أبعدَ الحديث عما فى المدارس من أفنية وملاعب يجيء الحديث عما فى المدارس من مخابىء ومسارديب ؟

وأنا مع هذا أرحّب بهذه الشدائد ، فالأمم لا تضعُف إلا حين يسود فيها الأمان ، والأمن نعمةٌ عظيمة جدًّا ، ولكنه يغرى بالطمأنينة وهى ضربٌ من السكون ، والسكون نذير الجمود

السوريون فى مطارح الاغتراب

وهنا تسنح الفرصة للجواب عن سؤال وجّهه إلينا الأستاذ محمد حلمى وقد لاحظ أن السورى المسلم والسورى المسيحى يختلفان فى النشاط وفى الحظوظ حين يهاجران إلى أحد البلاد العربية ، مع أنهما انحدرا من بلد واحد ومن جنس واحد ، ثم سأل : أيرجع ذلك إلى فروق خفية بين العقلية الإسلامية والعقلية النصرانية ؟

وأجيب بأن ذلك لا يرجع إلى فروق ظاهرة أو خفية بين الديانتين ، وكيف والإسلام دين جهاد ، وهو يدعو أبناءه إلى الكسب والمعاش والاضطراب فى بقاع الأرض ، على حين تدعو المسيحية أبناءها إلى الزهد فى المنافع الدنيوية والتطلع إلى المصاير المأمولة فى رحاب السماء ؟

إنما يرجع السبب إلى أن السورى المسلم حين يفد على أحد البلاد العربية يندمج بسرعة فى البيئات الإسلامية بسبب اتحاد الدين : فتزول عنه وحشة الاغتراب ، ويذهب عنه الخوف ، ولا يشعر بالحاجة إلى التسلح بالمال ، وهو عماد المغتربين

أما السورى المسيحى فيشعر بأنه بعيد بعض البعد عن المجتمع وهو مجتمع إسلامى ، وبذلك تقوى فيه القدرة على الكفاح